مجلة الرائد

العدد : ٢١٠ الموافق في صفر ١٤٢٠ هجري ٦ / ١٩٩٩ ميلادي

| عنوان المقال : الاختلاف والتعصب في واقع المسلمين ! | بقلم : أ. عبد العزيز بلحاج |
|---|---|

بينما العالم كله يتجه في هذا العصر نحو التكتل والترابط على كل صعيد ، وطي صفحات الماضي المليئة بالصراعات الأيديولوجية والعسكرية والاقتصادية ومد جسور الحوار والتفاهم . مازال المسلمون مصرين على الاختلاف والتدابر والتنازع والتقاطع فيما بينهم على كل صعيد .. !

وإذا كان لسان حال المسلمين ينعى دائماً التفرق والتشرذم المتفشي فيهم ، ويرددون أنشودة الوحدة الإسلامية ويعلقون عليها أمانيهم وأحلامهم .. إلا أن واقع المسلمين - وأخص بالذكر الفعاليات والحركات الإسلامية - حافل بما يناقض تلك الادعاءات ، ويسهم بشكل كبير في إثارة الخلافات والصراعات التي تعمق الفجوة وتزيد التطاحن والتنازع فيما بين المسلمين . ومن يتابع ما يجري على ساحة العمل الإسلامي يظهر له جلياً ذلك الانفصام الكبير بين المثال والواقع وبين الشعارات والممارسات ...

إن الأمة الإسلامية قد ورثت تركة ثقيلة من الخلافات في قضايا مختلفة ، وهي في غالبها اختلافات في فروع وجزئيات ؛ لا تمت بصلة إلى أصول الإسلام الثابتة . والخلاف الفقهي في الفروع قديم قدم الإنسان نفسه ؛ نشأ حتى في عهد رسول الله ﷺ دون أن يتطير منه أحد أو يثير النزاع والشقاق في أوساط المسلمين... وبعض الخلافات التي ورثناها أيضاً أملاها الترف العقلي الذي كان يعيش فيه المسلمون أيام كانت الدولة الإسلامية سيدة العالم !

ومما يعاب على الحركة الإسلامية وتُلام عليه القوى الفاعلة في الحقل الإسلامي في واقعنا المعاصر ؛ تركيزهم على الخلافات التي تزيد من توسيع الهوة بين المسلمين ، وعجزهم عن إيجاد سبل للتواصل والحوار والتفاهم بين الفصائل المختلفة في الوسط الإسلامي ، فضلاً عن إصرارهم على بعث خلافات الماضي وإضافتها إلى مشكلات العصر وخلافاته .! تلك الخلافات التي أثخنت جسد الأمة في الماضي والحاضر بجراح عميقة ، عوقت مسيرتها وألهتها عن التصدي لتحدياتها الحقيقية وقطعت أوصالها في كل حين .

**الاختلاف سنة كونية :**

بادئ ذي بدء يجب أن نقرر إحدى البديهيات والسنن الإلهية في الكون ؛ وهو أن الاختلاف يُعد أمراً طبيعياً لا بد من حدوثه ، وهو أيضاً من سنن الله في الكون والمخلوقات ، فالكون كله قائم على التعدد والاختلاف في الأنواع والصور والألوان { **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات**

**مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ۞ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء** } [ فاطر : ٢٧-٢٨ ] وهذ الاختلاف ليس اختلاف تضاد وتعارض { **ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت** } [ الملك :٣ ] وإنما هو اختلاف تنوع وتعدد وهو مصدر إثراء وخصوبة ... وهو كذلك من آيات الله الدالة على عظمته وبديع حكمته { **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين** } [ الروم : ٢٢ ]

وعلى هذا الأساس كان الاختلاف من طبائع البشر التي فطر الله الناس عليها فمن حكمته عز وجل أن خلق الناس مختلفين في صورهم وأفكارهم ، وميولهم وأذواقهم ، الأمر الذي يترتب عليه حتماً اختلاف الناس في الاتجاهات النفسية والمواقف والأعمال . والاختلاف أمر واقع لا راد له ، وهو أمر اقتضته إرادة الله عز وجل ، وهو سر من أسرار حكمته في خلقه جل شأنه ؛ { **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ۞ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم** } [ هود : ١١٨-١١٩ ] فالاختلاف أمر واقع بمشيئة الله ، وهو سنة إلهية جارية في خلقه ، ما له من دافع .

والذين يريدون استئصال الاختلاف والقضاء الكامل عليه ، والدعوة إلى الانصهار والذوبان وصب الناس كلهم في قالب واحد في كل شاذة وفاذة ، ومحو كل اختلاف بينهم ، إنما يحاولون عبثاً ويطلبون المستحيل ، ويصطدمون بسنن الله في الكون وفطرته في خلقه : { **سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً** } [ الفتح : ٢٣ ]

وبناءً عل ما سبق وتماشياً مع نواميس الكون وسنن الله فيه ، فقد أقر الإسلام بالاختلاف في حدوده المنطقية والمعقولة ، ما لم يؤدي ذلك إلى اختلاف القلوب وفساد ذات البين . ولعل موقف الرسول ﷺ في قضية صلاة العصر في بني قريظة ، يعبر بشكل واضح عن مدى تفهم الإسلام ورسول الإسلام ﷺ لظاهرة الاختلاف عند البشر ، النابعة من اختلاف الأفهام والمدارك ، أو الطبيعة النفسية أو الذهنية في التعامل مع كل قضية .

والإسلام حافل بوقائع كثيرة وقضايا مختلفة تعبر عن مدى عظمة ومثالية موقف الإسلام من التعامل مع الاختلافات الطبيعية والمشروعة ؛ والمذاهب الفقهية القائمة منذ فجر الإسلام على اختلاف مناهجها ومدارسها ، لخير دليل على عظمة الإسلام وشموليته في احتواء واستيعاب الاختلافات الطبيعية في الفروع التي لا تمس الأصول .

**التعصبب الممقوت**

الاختلاف طبيعي وفطري ، وسيبقى إلى آخر الدهر كذلك ، ولا يعتبر معضلة أو شراً يجب اتقاءه بل مصدر تنوع وإثراء للأمة ...

ولذلك نشأ الاختلاف بين الجماعات الإسلامية والدعاة والعاملين للإسلام في مسائل عدة فكرية وفقهية وسياسية ... وكلها اختلافات ناتجة عن اختلاف وجهات النظر في المسألة الواحدة ، واختلاف زوايا الرؤية في قضية ما ، إضافة إلى تباين الأمزجة وتفاوت أنماط التفكير من جماعة إلى أخرى فضلاً عن تأثيرات البيئة والزمن .. وتبقى هذه الاختلافات من النوع المقبول ومما تقتضيه سنة الله في الكون ... فلا خشية إذن من الاختلاف .

وأما الاختلاف المذموم والمرفوض منطقاً وشرعاً فهو الاختلاف الذي يؤدي إلى الفرقة والنزاع ثم إلى التدابر والتنافر ، ويتحول من الخلاف الفكري والمناظرة العلمية إلى الصراع والشقاق ، حتى يصبح التعصب للنفس وآراء الأشخاص والمذاهب والجماعات ... أشد من التعصب للحق ؛ وتختفي معه كل المقومات الأخلاقية والشرعية بين المختلفين ، والتعصب الأعمى في مثل هذه الأجواء يصير سيد الموقف .. فتتمزق الصفوف ، ويصبح بأس المسلمين بينهم ، وتنقلب أواصر الأخوة والمحبة إلى العداء والحقد والكراهية .. فلا خشية من الاختلاف ولكن الخوف كل الخوف من التعصب والجهل . فالمتعصب يرفض مسبقاً الرأي المخالف ، فلا يكلف نفسه جهداً بالاطلاع عليه ، ولا يرى سوى رأيه أو رأي المذهب الذي يعتنقه أو الجماعة التي ينتسب إليها ؛ فيسعى جاداً إلى إلغاء الرأي الآخر وإقصائه .

ويترتب على هذا الصنف من التفكير نتائج خطيرة من بينها :

* اغتيال العقول وتعطيل قدراتها عن العمل والنشاط ، الأمر الذي يؤدي إلى جمودها وتحجرها وتحويلها إلى أوعية للتخزين واستهلاك الأفكار ، لا أدوات للتفكير والإبداع .

* وفي مثل هذه الأجواء المريضة لا يتصور الاختلاف في الرأي إلا في صورة نزاع وخصام وصراع ... فلا مجال للتنوع والثراء الفكري .

* تفشي الفرقة والفتن في أوساط الناس ، وغياب كل المقومات الأخلاقية والسلوكية بين المختلفين .

* انتشار داء تتبع عورات الآخرين ، ورصد هفوات وزلات المخالفين وكل ما يشوه صورتهم ويحطم سمعتهم ، وفي المقابل غض الطرف عن أخطاء الموافقين وسترها مهما فحشت ، عملاً بشعار : " من معي فهو قديس ، ومن ليس معي فهو إبليس " .

فالتعصب بهذا الشكل ليس فقط سبيلاً إلى الفرقة والفتنة ، بل هو في نفس الوقت علامة على التخلف والانحطاط ، وبوسع الراصد لمسار التاريخ الإسلامي أن يلاحظ ذلك التلازم الدائم بين التعصب والانحطاط في واقع المسلمين في مختلف مراحل تاريخهم . ولم يشهد المسلمون مثل هذه الأمراض الفكرية والنفسية أيام كانوا يوجهون جهودهم نحو معالي الأمور وعظائمها ، يوم كانت الأمة الإسلامية في القمة وتهتم برسالتها ، وأما عندما هوت ، ووهنت أمام الأعداء ، انصرف الناس عامة وعلماء عن الجد والعمل وحمل أعباء رسالة الإسلام ، إلى الانشغال باللغو والتفاهات وسفساف الأمور التي تنشئ الفتن وتزيد من توهين الأمة .. حتى صار البعض يعيش حالة من الاهتمام البالغ بجزئيات لا تمت إلى جوهر الإسلام في شيء ، ومعظمها أمور من فروع الدين المختلف حولها منذ فجر الإسلام ، بدل الاهتمام بالقضايا الكبرى التي لم يختلف عليها سلف الأمة ولا خلفها .

وهكذا ، وفي زمن انحطاط المسلمين وانكسارهم ، توقف العقل المسلم عن العطاء الحضاري ، فاقترن الاختلاف بضيق الصدور والعقول ، فشاع التعصب واختفى الحوار... حتى صار كل فريق يعرض رأيه بحسبانه رأي الإسلام ، فصارت كل جماعة تحتكر الكلام باسم الإسلام ، واستخدم الفرقاء أسلحة الدين الماضية من التكفير والتبديع والتضليل والتفسيق ... فصار بأس المسلمين بينهم شديداً ، وامتلأت القلوب بالشحناء والبغضاء . وماضي المسلمين القريب كحاضرهم مليء بصور مخجلة وحالات مزعجة من التعصب الأعمى والتضييق فيما وسع الله فيه ...

ومما يزيد الألم أن المسلمين في عصرنا ، وبالرغم من واقعهم المنحط ، ومشكلات العصر وتحدياته ، ما زالوا يركزون في الغالب على مواضع الخلاف وما يوقد نيران الصراع ويعمق الهوة بينهم ، ولا يسعون إلى التفاهم والتآلف ومد جسور التعاون .. كأن الإسلام كله خلافات ولا يتسع لمساحة اتفاق

ومما يذيب القلب حسرات أن المسلمين في الغرب ، وبالرغم من كل المصاعب وجسامة المخاطر التي تتهدد وجودهم ، يُتقنون فنون الفرقة والصراع ، فقد استوردوا معهم المشاكل والخلافات من العالم الإسلامي ، وزاد من حدتها الحرية والشفافية التي يتمتعون بها في الوسط الغربي ، فتحول المسلمون من أقلية في الوسط الغربي إلى أقليات وجماعات متنابذة ومتصارعة ضمن أقلية .. وهذا الواقع المؤلم والمؤسف يؤدي إلى تضييع حقوق كثيرة ويحول دون الوصول إليها ، وتفويت فرص ثمينة ..

وكم ألمني ذلك النبأ الذي سمعته في هولاندا ؛ فقبل أيام قليلة قمت بزيارة إلى هولاندا أتفقد فيها

بعض الأقارب ، وقيل لي أثناءها بأن مدرسة إسلامية يرتادها أولاد المسلمين والتي تمولها الدولة الهولاندية ، تعتزم الدولة انتزاعها من المسلمين بعد حدوث مشاكل وبلابل فيها بين المسلمين .. من بينها نشوب خلاف أدى إلى عراك شديد حول القبض أو السدل أثناء الصلاة !!! فأي لغط هذا ؟

إن هذا الواقع يكشف لنا بشكل صريح وواضح أزمة الفكر الإسلامي ، وعجزه الرهيب حتى عن التكييف مع واقعه وعصره ، والاستفادة من معطيات محيطه وبيئته فضلاً عن أن يعيد بناء واقعه وحضارته بنفسه ، وهذا الواقع المزري والمنحط للغاية يستدعي المراجعة الفورية ، والتغيير الجذري لأوضاعنا المتردية .

**لنتعلم كيف نختلف :**

كوننا لا نعرف كيف نتفق أصبع أمراً شائعاً ومعروفاً لدى القريب والبعيد ، وأصبح من سماتنا نحن معشر المسلمين ، ولكن الطامة الكبرى والمشكلة الحقيقية أننا لا نعرف أيضاً كيف نختلف

وإذا نظرنا إلى غيرنا من المتحضرين وجدنا أن أسباب الخلاف بينهم أعمق وأشد من أسباب الخلاف بيننا ، وبالرغم من ذلك يصلون إلى نتائج لا نستطيع الوصول إليها ، وذلك لأنهم يواجهون خلافاتهم على نحو مغاير تماماً لما نواجه به خلافاتنا ، ويعرفون تماماً كيف يختلفون ولا يجعلون اختلاف الرأي مدعاة للصراع والنزاع .. بل يسعون جادين لمد جسور الحوار والتفاهم فيما بينهم ، للالتقاء بعد ذلك ثم الاتفاق .

ولنا في إسلامنا العظيم خير مثال على ذلك ، وفي علمائنا الكبار خير قدوة وأسوة. ومن الأقوال المأثورة في تراثنا الإسلامي قول القائل : " إن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية " . ويقول الإمام تاج الدين السبكي : " إن المرء إذا لم يعرف الخلاف والمأخذ لا يكون فقيهاً إلى أن يلج الجمل في سم الخياط " وقيل أيضاً : " من لم يعرف الاختلاف لم يشم أنفه الفقه " .

ومعروفة تلك الاختلافات التي كانت موجودة بين أئمتنا الكبار : أبي حنيفة ومالك والشافعي ، وأحمد والثوري والأوزاعي... فلم يروا فيها شراً ، ولم يتعصب أحد منهم لرأيه ويحاول حمل الآخرين عليه ..

وثابت قدر الإجلال والاحترام الذي كان يتبادله الأئمة فيما بينهم ، فقد نقل عن الشافعي قوله : " لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز " وقوله أيضاً : " مالك بن أنس معلمي ، وعنه أخذت العلم ، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم . " . وعندما سئل أحمد بن حنبل رحمه الله عن سفيان ومالك إذا اختلفا في الرواية ، قال : " مالك أكبر في قلبي " . ولما سئل عن اختلاف مالك والأوزاعي قال : " مالك أحب إلي

وإن كان الأوزاعي من الأئمة "

والإسلام أيضا غني بما يدعو إلى الاعتصام ويحذر من التنازع والفرقة ، وحقوق المسلم على المسلم ، من الموالاة إلى المؤاخاة لا حصر لها في تعاليم الإسلام ، وكما أن الإسلام يعج أيضاً بما يدعم مبادئ الحوار ، ويقوم آداب الاختلاف ...

وأخيراً ندعو كل القائمين على العمل الإسلامي إلى ردم فجوات الخلاف والعمل على لم شتات المسلمين ، وعلى مد جسور الحوار والتفاهم ، وإزالة ما بين المسلمين من حجب وأشواك وألغام . فنحن في زمن صار فيه الحوار لغة ضرورية لدوام التعايش وتحقيق المصالح بين الأعداء والأصدقاء ... والحوار الذي ما يزال غائباً عن الساحة هو الحوار الإسلامي الإسلامي .